المدرسة النحوية و المحاولات المبكرة لظهور النحو في عصرالجاهلي والاسلامي :

مصطلح يشير إلى اتجاهات ظهرتْ في دراسة النّحو العربي، اختلفتْ في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعيَّة، وارتبط كل اتجاه منها بإقليم عربي معين، فكانتْ هناك مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد وهكذا، ولم يكن لهذا الارتباط المكاني دلالة علمية خاصة.ويرى بعض الباحثين أن القدماء لم يُطلقوا على مسائل الخلاف في النحو القديم كلمة مدرسة، فلم يؤثر عنهم مصطلح المدرسة البصرية، ولا مصطلح المدرسة الكوفية، ولا مدرسة بغداد، ولكننا نقرأ من قولهم :مذهب البصريين، ومذهب الكوفيين، ومذهب البغداديين، وربما ورد في قولهم: مذهب الأخفش، ومذهب الفراء، ومذهب سيبويه، وغير ذلك، غير أن المعاصرين استحسنوا لفظ المدرسة فاستعاروها في مادة الخلاف النحوي، كما استعاروها في مسائلَ أدبية أخرى، فأطلقوا على بناء القصيدة عند أوس بن حجر - مثلًا - بناءً خاصًّا يختلف عما عند غيره من الجاهليين، واستمرأ هذا النهج في الاصطلاح بعضُ الباحثين، فكانت مدرسة الديوان، وهكذا قيل عن الأدب في المهجر، على الرغم من الخلاف الكبير بين أدباء المهجر في منازعهم الفكرية.

ولعل مِن هذا ما ذهب إليه الباحثون المعاصرون في تاريخ النحو والنحاة، فأثبتوا مصطلح المدرسة في نحو البصريين، ومثله مدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد أو غير ذلك، غير أنك حين تنظر في التراث النحوي لا تجد جمهرة النحاة - بصريين وكوفيين وغيرهم- قد اختلفوا في أصول هذا العلم، ولم ينطلق هؤلاء من أفكار متعارضة، ولكنهم قد اختلفوا في مسائل فرعية تتصل بالتعليل والتأويل، فكان لهؤلاء طريقة أو مذهب ولأولئك طريقة أو مذهب آخر، وقد يكون الاختلاف بين بصري وبصري كما كان بين كوفي وكوفي آخر، ولا تعدم أن تجد بصريًّا قد وافق الكوفيين، وكذلك العكس.

وإليك نبذة من المحاولات المبكرة لنشأة النحو، فأصبح مهدا لظهور المدارس النحوية:-

المحاولات المبكرة لظهور النحوفي عصرما قبل الاسلام :

نشأت اللغة في الجزيرة العربية خالصة لأبنائها نقية من دخيل اللغات الأخرى لشية فيها ، وظلت كذلك حين كان القصيد العربي فن العرب الأول معتمدا على عطائها.

وأضحت أسواق العرب بما فيها من حشد تكافي مؤكدة لثوابت هذه اللغة محققة قيم الصواب فيها، ومن أشهر هذه الأسواق (سوق عكاظ) بين الطائف ونخلة ، و(مجنة) بمر الظهران ، و(ذي المجاز) خلف عرفة.

ومن ثم لم يكن من المستغرب أن يبدو حق النحو موجودا وإن كان غامق الحدود، وما كان تثقيف الشاعر الجاهلي لحوليته وقفا على مراد الدلالة والجمال وحدهما وإنما ارتبط الحول والتثقيف بجوانب الصحة التي ترتكز على النحو والصرف معا .

فالأدراك اللغوي الذي اعتمد الصحة والجمال وقتها كان واحدا ؛لأن الباحث عن جمال لابد أن يسلك أولا طريق الصحة والصواب .

في هذا الوسط البعيد كان الوعي بقيم النحو أمرا واردا وإن كان غامضا ومن خلاله أدرك هذا الوسط الثقافي خطأ النابغة حين قال :

أمن آل مية رائح أو مغتدى ... عجلان ذا زاد وغير مُزَوَّدِ

زعم البوارح أنَّ رحلتنا غدًا ... وبذاك خَبّرنا الغرابُ الأسودُ

وكان النابغة كثيرًا ما يُقوِي في شعره، وقد أراد أهل يثرب أن يدلُّوه من طرف خفي على خطئه، فأوحوا إلى جارية تغنيه بالأبيات السابقة، وأن تتعمد إظهار الحركات

المختلفة بالضم والكسر؛ ففعلت، ففطن النابغة لشعره؛ فأصلح خطأه فجعل عجز البيت الثاني:

وبذاك تنعاب الغراب الأسود. فقد أدرك المتلقي بفطرته حدود الخروج عن الهائم وقتها وقام بالتوجيه من خلال قينة دست للنابغة محكم الشعر الجاهلي توحي إليه بالصواب دون أن يواجه النابغة تصريحا بخطأه ، وفي هذا الصنيع يظهر أدب الاعتراض العلمي جليا .

وعلى أساس من هذا التوجيه حقق النابغة مضمون الصواب وهو مضمون وعي أبعاد الجر والرفع والنصب وذلك بتغيير التركيب اللغوي إلى تركيب آخر يراعي حق التبعية قائلا:

وبذاك تنعاب الغراب السود.

تلك خطوة لغوية تمثل إرهاصا يثبت وعي البيئة بأن هناك قانونا مثلته وأفضحت عنه سليقة المبدعين وسليقة المتلقين، وذاك حال العرب في عصر الجاهلي في التعامل مع مثل هذه الحالات المخالفة للقوانين اللغوية.

المحاولات الجادة لاستكشاف اللحن ووضع أسس النحو بعد مجيء الاسلام:

في عصر صدر الاسلام قبل أن تبدأ ظاهرة اللحن التي لم تستقر أمرها في إطار النحو وحده بل داست على النحو والصرف والاصوات فقد اضحت ظاهرة عامة أكدتها

ازدواجية المتكلم وقتها لأنه لم يكن عربيا خالصا في تلك الظاهرة يقول أبو الطيب اللغوي :

" واعلم أن أول مااختل من كلام العرب وأحوج إلى التعلم: الإعراب ؛ لأن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

ولعل ثبتا لورود الخطأ اللغوي والعمل على رده يؤكد حرص البيئة وقتها على سلامة العربية ولم يكن علماء اللغة وحدهم أول من أحس بالخطأ فقد كان أولي الامر أشد رفضا لوجوده وأوضح تلمسا لطريق الصواب.

يروى عن المصطفى صلى الله عليه وسلم: أن رجلا لحن بحضرته فقال صلى الله عليه وسلم: "أرشدو أخاكم فقد ضل" .

فالخطأ لم يسلم منه الصحابي في حضرة المصطفى ورد المصطفى ردا نبويا يقيم قاعدة يطلب فيها الارشاد وإنارة الطريق بناء الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والحكم على الخطأ ضلالا ، فإن مفهوم المخالفة يثبت أن الصحة من باب الهدى.

وقال أبو بكر الصديق : لأن أقرأ فاسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن. ويروى أن أحد ولاة عمر (رض) كتب كتابا لحن فيه فكتب عمر إليه أن قنع كاتبك سوطا.

وما روي عن عمر بن الخطاب (رصي الله عنه) أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (رحم الله امرءا أصلح من لسانه) فما هي الطريقة التي يصلح بها الإنسان من لسانه إذا لحن ؟ إنها طريقة النظر فيما كان له قانون .

وما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضا قال: تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد من المروءة. فمن أين وكيف نتعلم العربية بدون أن يكون لها قانون قد

وضع.

وما وري من أمر علي (رضي الله عنه) أو عمر (رضي الله عنه) أو زياد بن أبيه في قصة المقرئ الذي أقرأ الأعرابي : (أن الله برئ من المشركين ورسوله) بالجر , بأنه لا يقرأ القرآن إلا عالم بالعربية فمن أين يأتي قانون العربية إذا لم يكن هناك ضابط وإلا فنطق العرب بالعربية بدون ضابط سواء يستوي في ذلك جميعهم ولا يوصف أحدهم فيها بعلم عن غيره.

ومر عمر بن الخطاب (رض) على قوم يسيئون الرمي ، فقرعهم ، فقالوا : إنا قوم "متعلمين" فأعرض مغضبا وقال: والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم. فصواب اللغة واكتمال أدواتها أهم مطلبا لدى عمر من اتقان حرفة القتال التي يستعد بها المسلم للجهاد في سبيل الله. هل لنا أن ندرك مغزى هذه المفارقة لدى عمر بين خطأ االلغة وخطأ الرمي؟

هكذا كان الخلوص للعربية واضحا في زمن لم تختلط فيه الأمور وحين ضاع صفاء ناطقها بدا الاحساس بمشكلة اللحن كبيرا ولم يتوان المسلمون وقتها لدفع شائبة اللحن عنهم غيره على الدين والاسلام وحرصا على اللغة والبيان الراقي الرفيع وتأكيدا لكون الصواب سمة من سمات النبل ومشادة الكرامة والسيادة.

يقول عبد الملك بن مروان : الإعراب جمال للوضيع واللحن هجنة على الشريف ، وقد قيل له: لقد عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ، فقال: شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن، وفي هذه المنطقية المروانية التي تجعل اللغة سبيلا لمفارقة طبقية اجتماعية

تتكلم هند بنت اسماء بن خارجة فتلحن عند الحجاج عامل عبد الملك بن مروان فيقول لها:

"أتلحنين وأنت شريفة وفي بيت قيس".

دالا على أن عزوة قيس وقيمتها ترتبط بنقاء لغتها ، فردت عليه قائلة: أما سمعت قول أخي مالك لامرأته الانصارية ، قال: ما هو، قالت: قال: منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا. فقال لها الحجاج: إنما عني أخوك اللحن في القول إذا كنى المحدث عما يريد ولم يعن اللحن في العربية، ثم وجه إليه أمره قائلا : أصلحي لسانك.

هكذا كان حرص العلماء على توقي اللحن والحفاظ على صواب اللغة وقد قدر ذلك الخلفاء الأمويون والعباسيون وكان النحاة مؤدبي ومعلمي أولادهم وفي ظل هذا التقدير وفي ظل الصراع بين المبدع والناقد يدن محاور الخلاف بين اللغويين والأدباء ألفت بظلها مع الحرص على لغة لقرآن وتوقي اللحن إلى تشكيل علم النحو العربي.